رحلة الأدب العربي الحديث
إلى الإنجليزية

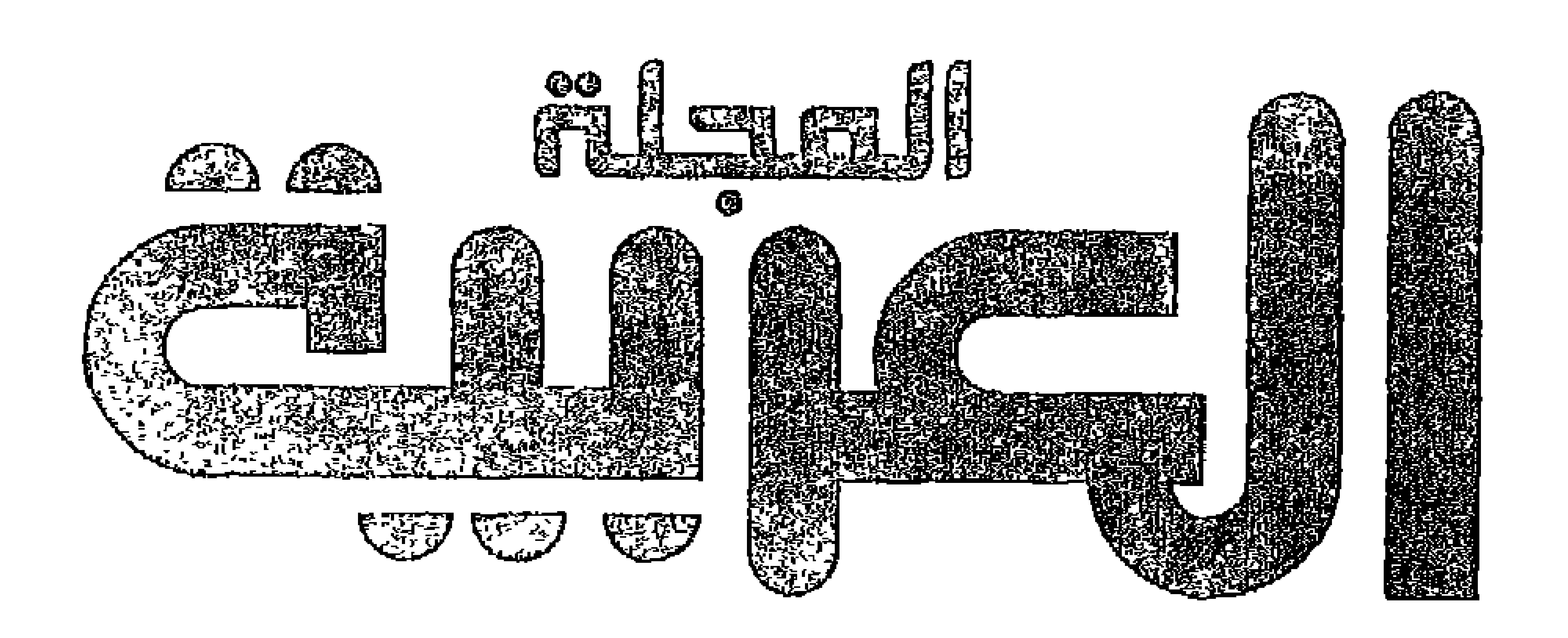
د. موسى أحمد الحالول

كتيب
المجلة
العربية

العدد ٣٨٩ جمادى الآخرة - ١٤٣٠هـ - يونيو ٢٠٠٩

رحلة الأدب العربي الحديث
إلى الإنجليزية

د. موسى أحمد الحالول

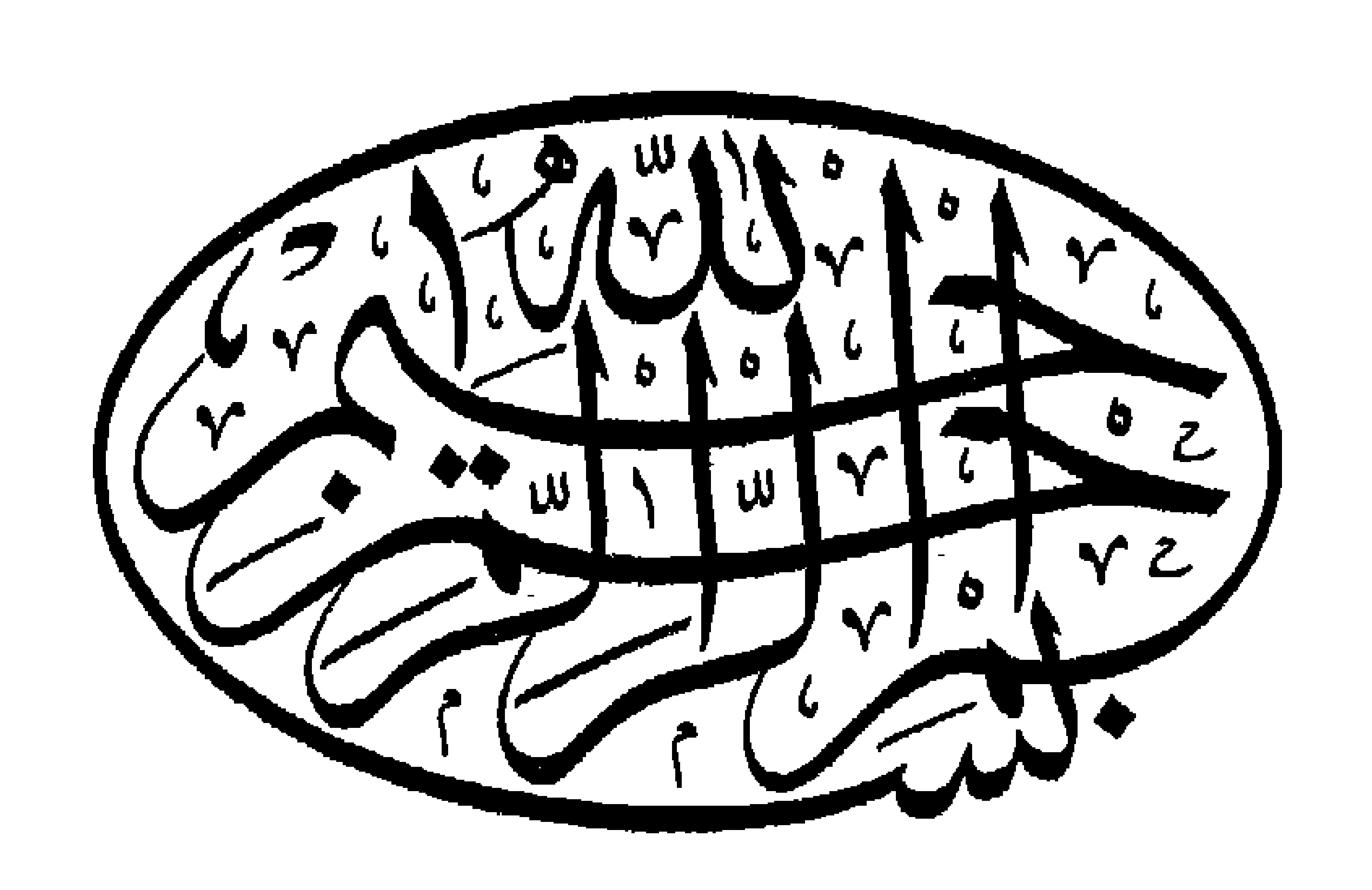


رئيس التحرير

د. عثمان بن محمود الصيني

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي
هاتف: ٤٧٧٨٩٩٠ - ٤٧٧٩٧٩٢ فاكس: ٤٧٦٦٤٦٤
ص.ب ٥٩٧٣ الرياض ١١٤٣٢
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com - info@arabicmagazine.com



بسم الله الرحمن الرحيم

جونسون ديفيس القابض على الجمر

بعد أن جاوز عقده الثامن لم يجد الكاتب والمترجم البريطاني دنيس جونسون ديفيس المولود في كندا عام ١٩٢٢م ما يستحق أن يسطره في سيرته الذاتية سوى ذكرياته عن تلك العقود التي قضاها في خدمة الأدب العربي؛ ترجمة ونشراً واقتباساً وتعريفاً. لذلك لا نجد في هذه السيرة الموجزة من المعلومات الشخصية إلا ما كان مرتبطاً بهذا العمل، ولهذا نجده قد جعل لهذه السيرة عنواناً يدل على مكانة الترجمة في نفسه وسيرته الأدبية، Memories in Translations، A life between the Lines of Arabic Literature (ذكريات في الترجمة: سيرة بين سطور الأدب العربي)، وقد نشرتها مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة عام ٢٠٠٦م. إنه يجدر بنا أن نستهل الحديث عن منجزه هذا باقتباس الخاتمة المقتضبة التي اختارها لتلك السيرة: «لا شيء يتحرك من دون ترجمة» (ص١٣١). ومؤدى هذه العبارة التي اقتبسها من مصدر لم يُسمِّه، أنه لولا الترجمة، لحُكم على الأدب العربي بالركود والتقوقع على نفسه ضمن محيطه الإقليمي، وأن الترجمة هي السبيل الأول الذي يُمكن هذا الأدب من التنفس خارج هذه القوقعة، وإتاحة الفرصة له للتلاقح مع الآداب العالمية، وإثرائها والتأثير فيها. كما أن الترجمة، بوصفها فعلاً عابراً للثقافات والحدود، تحرك المياه الراكدة في الثقافة المترجم إليها.

إنه لمن الإنصاف القول: إن دنيس جونسون ديفيس يستحق عن جدارة

واقتدار لقب المترجم الإنجليزي الأبرز للأدب العربي الحديث في القرن العشرين، إذ لم يكرس أحدٌ حياته لتعريف العالم الناطق بالإنجليزية بهذا الأدب مثله، فله فضل السبق والريادة في هذا المجال دون أن يكون لهذا التفاني المنقطع النظير أي مردود مادي يستحق هذا العناء. فعل كل هذا في وقت كان المستشرقون، بحكم نظرتهم السكونية الجامدة للمجتمع العربي[1]، يتجاهلون هذا الأدب الذي يعكس حيوية الإنسان العربي وقدرته على الانفتاح والتجديد، ويفند زعم الزاعمين منهم أن اللغة العربية لا تصلح حتى للتخاطب، ناهيك بصلاحيتها للتعبير الأدبي أو العلمي أو الفكري[2]، وأن المجتمع العربي في صميمه مجتمع بدوي سكوني لا يدرك سيرورة التاريخ ولا يعترف بها، كما يزعم المستشرق اليهودي رافائيل بتاي[3]. فعندما بدأ جونسون ديفيس دراسته للغة العربية على أيدي المستشرقين في جامعتي لندن وكامبردج، ومن بينهم نيكولسون، الضليع بدقائق الأدب الصوفي ومترجم «المثنوي» لجلال الدين الرومي، انتابه شعور أن اللغة العربية لغة ميتة كاللاتينية، ووجد أن اهتمام أساتذته ينحصر بالماضي لا بالحاضر. ولهذا لم يتجشم أحدٌ منهم عناء السفر إلى تلك البلاد التي يدرسونها[4]. وهذا يعني أن الرؤية الاستشراقية للعالم العربي، كما حاجج إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق»، هي رؤية نصيّة جامدة تتجاهل الإفرازات الطبيعية للجغرافيا البشرية والتاريخ الحي[5].

قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن يسود مثل هذا الوضع في الأوساط

الأكاديمية الإنجليزية وغيرها على الرغم من معرفة الإنجليز بشكل خاص، بل ولعهم بـ«ألف ليلة وليلة» منذ بداية القرن الثامن عشر، حيث سيطرت هذه الحكايات على المخيلة الأدبية الإنجليزية إلى درجة أن عدداً من الشعراء والروائيين الإنجليز من بوب إلى ويردزويرث وقعوا تحت سحرها(٦). لكن المدقق في الأمر يستنتج أن عزوف القارئ الإنجليزي عن الأدب العربي الحديث، سواء أكان هذا القارئ مستشرقاً أم غير ذلك. قد يكون بسبب «ألف ليلة وليلة» لا رغماً عنها. فمنذ أن بدأ الفرنسي أنتوان غالان ينشر ترجمته المسلسلة (١٧٠٤-١٧١٧م) لهذه الحكايات(٧)، راحت الترجمات الإنجليزية تتوالى بدءاً من عام ١٧٠٦م. كما راح الكتاب والمقلدون والمغامرون والمترجمون وأشباههم يصدرون مجموعاتهم القصصية المترجمة أو المستوحاة من «ألف ليلة وليلة» حتى بلغ مجموع ما أصدروه قبل نهاية القرن الثامن عشر أكثر من ثمانين مجلداً(٨). وهذا يدل على الأثر الطاغي لـ«ألف ليلة وليلة» ويؤكده الباحث العراقي حسين هدّاوي. الذي أصدر أفضل ترجمة لهذه الحكايات بالإنجليزية. إذ يقول: إنه منذ ترجمة غالان ساد اعتقاد بين المترجمين والباحثين والقراء أن «ألف ليلة وليلة» ترسم صورة حقيقية للحياة والثقافة العربيتين، ليس فقط في زمن الحكايات بل في الزمن المعاصر أيضاً. لا بل إن أشهر مترجمي «ألف ليلة وليلة» مثل غالان، ولين، وبيرتن، ما انفكوا يزعمون أن هذه الحكايات أصدق من أي من كتب الأسفار المعاصرة التي كانت رائجة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولهذا نجد أن (لين) ينظر إلى ترجمته

لهذه الحكايات بوصفها دليلاً سياحياً لكل من القاهرة ودمشق وبغداد[٩].

خلاصة القول: إن الترجمات المغرضة لـ«ألف ليلة وليلة» أسهمت كثيراً في تحجّر التصور الغربي تجاه العرب. وحكمت على هذا التصور بالتقوقع بين دفتي نصّ من نسج الخيال. وشلته من ثم عن الالتفات إلى تعبيرات أكثر التصاقاً بواقع الحياة العربية وتاريخها المعاصر. كما أن الهوس بحكايات «ألف ليلة وليلة» خلق نوعاً من الإشباع عند القارئ الإنجليزي الباحث بنهم عن عوالم غريبة لا يجدها في الأدب الإنجليزي نفسه الذي راحت تطغى عليه سمة الواقعية منذ الثورة الصناعية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

لكن (جونسون ديفيس) الذي تأكد له مرة بعد مرة أن المستشرقين مُصممون على إبقاء الأدب العربي الحديث حبيس الأدراج الأكاديمية أطول مدة ممكنة[١٠]. اختط لنفسه مساراً مختلفاً عن نهج أساتذته وأبناء جلدته. فخلال ما يزيد على ستة عقود قضى معظمها في مصر، ولبنان، والإمارات، والمغرب. استطاع أن ينقل إلى الإنجليزية أكثر من ثلاثين مجلداً من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات العربية من مختلف البلدان العربية. كما استقى عدداً من حكايات جحا وقصص الحيوان المعروفة في الجزيرة العربية ومصر والسودان والمغرب، وجعلها مادة لمجموعاته القصصية التي كتبها للأطفال. إضافة إلى ذلك، عكف على ترجمة بعض الأحاديث النبوية الشريفة مثل (الأربعين النووية) والأحاديث القدسية. وألف كتاباً عن غزوات الرسول -صلى الله

عليه وسلم- وآخر عن الخلفاء الراشدين، وكتاباً عن آداب المائدة عند المسلمين. وهو الآن يعكف على ترجمة مختارات من القرآن الكريم. هذا التنوع يعكس اهتمام المترجم بنقل صورة شاملة عن تاريخ العرب وثقافتهم اللتين شكلتا، بطريقة أو بأخرى، العمود الفقري للأدب العربي الحديث. كما يعكس رغبته في إحداث نوع من الحوار الحضاري والتلاقح الثقافي بين العرب والعالم الغربي في عصر تسوده الصور النمطية المجحفة في الغرب عن العرب.

لا بنو لينين يعرفوننا ولا بنو ريغان

في الفقرة الأولى من كتابه The Past We Share (ماضينا المشترك) يروي إي إل رانيلاغ كيف أن أحد الناشرين الإنجليز احتج في نهاية القرن التاسع عشر على كلام أدبي راق وجميل وضعه أحد الكتاب على لسان شخصية عربية إسلامية، ومردّ احتجاج الناشر هو أن مثل هذا الكلام غير جدير بأن يصدر عن عربي مسلم من جهة، وإنْ صدر فلن يتقبّله القارئ الغربي لأن الصورة النمطية السائدة في الغرب عن العرب آنذاك تروي حكاية أخرى. وعلى الرغم من أن العالم العربي، بأدبه وثقافته وتاريخه وحضارته وعلومه. لا يجدر أن يظل مجهولاً تماماً للقارئ الغربي في القرن التالي لهذه الحادثة. إلا أن الصورة النمطية احتفظت بكثير من رواسب الماضي وتحامله على العرب، بل من المؤكد أن ما شهده القرن العشرون من صدامات شتى بين العرب والغرب جاء ضغثاً على إبالة.

فهذه الشاعرة والأكاديمية الفلسطينية سلمى الخضراء الجيوسي تروي

للشاعر الفلسطيني يوسف عبد العزيز عن حادثة وقعت لها عام ١٩٨٠م في جامعة تكساس الأمريكية تنم عن موقف مماثل يُشكّك بقدرة العرب على الإتيان بأي مُنجز حضاري. ففي أثناء حوار لها مع الطلاب عن دور العرب في الحضارة الإنسانية، تقدم أحد الطلاب وتهكّم بعبارات نابية حول هذا الدور. تقول الجيوسي: «في تلك اللحظة انتابني شعور عارم بالتحدي، وصممت على القيام بعمل ما»(١١) وكان من نتيجة هذا التحدي أنها تركت عملها الأكاديمي لتطلق -وبمبادرة فردية- مشروع «بروتا» لنقل الأعمال الأدبية والفكرية العربية إلى الإنجليزية، فلربما وصل الصوت العربي إلى العالم(١٢). ومن بين الأعمال التي أنجزتها الجيوسي «موسوعة الأدب الفلسطيني الحديث»، وللقارئ أن يتخيل أهمية الترجمة، بل خطورتها، حين يعلم أن اللوبي الصهيوني، وهو المتضرر الأول من قراءة الغربيين للأدب العربي، حاول بكل ما أوتي من قوة أن يمنع صدور هذه الموسوعة في الولايات المتحدة، وفعلاً نجح في تأخير صدورها عاماً كاملاً(١٣).

وما عاينته الجيوسي من تحامل في جامعة تكساس خبره أيضاً مواطنها الراحل إدوارد سعيد في نيويورك وفي العام ذاته. ففي مقالة نشرها بعنوان "Embargoed Literature" (الأدب المحظور) يروي سعيد حكاية مماثلة. ومبلغ الدلالة في حكاية سعيد هذه أنها تنسحب على نظرة الاستشراق عموماً تجاه الأدب العربي الحديث الذي ظل المستشرقون يجافونه وكأنه لا يمثل منجزاً فنياً بل مجرد وثيقة اجتماعية. كما يقول السير هاملتن جب في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه Arabic Li-

erature (الأدب العربي) الصادر عام ١٩٦٣[١٤]. يقول سعيد إنه قبل حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الآداب بثماني سنوات (أي في عام ١٩٨٠م) اتصل به أحد كبار الناشرين الأمريكيين لانتقاء عدد من الأعمال الروائية في العالم الثالث لترجمتها ونشرها ضمن سلسلة جديدة كان الناشر ينوي إصدارها. فأعد سعيد قائمة صدّرها بروايتين أو ثلاث لنجيب محفوظ، وبعد مدة اتصل بالناشر ليعلم منه على أي الأعمال وقع اختياره، فإذا به يقول له: إن روايات محفوظ لن تُدرج على قائمة الأعمال المزمع ترجمتها؛ وذلك لأن «العربية لغة تثير الكثير من اللغط» (٣٧٢). ثم يعلق سعيد بمرارة كيف استغلت دار دبلداي الأمريكية شهرة محفوظ بعد نوبل (١٩٨٨م)، ولأغراض تجارية بحتة، بأن أعادت طباعة ترجمات بريطانية لبعض من روايات محفوظ بغض النظر عن جودة هذه الترجمات. كما يروي بسخرية لاذعة كيف أن جريدة نيويورك تايمز لدى نقلها خبر فوز محفوظ بالجائزة استفتت القنصل الإسرائيلي في نيويورك عن هذا الأمر. وكأن فوز أديب عربي بجائزة عالمية قد يكون مدعاة لفيتو إسرائيلي أو ربما يحتاج إلى موافقة من سدنة برج بابل!

وفي مقابلة مع كامل يوسف حسين نشرتها مجلة «العربي» الكويتية عام ٢٠٠٣م. يقول جونسون ديفيس: كنت متفائلاً في أواخر الأربعينيات وأوائل الستينيات. وأتوقع تعاظم الاهتمام العالمي بالأدب العربي، ولكن هذا لم يحدث. بل إن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل في الأدب لم يُعط دفعة للأمام في هذا الشأن، ودُور النشر العالمية اليوم قلما تبدي حماساً

لترجمة الأدب العربي». ثم يروي كيف تقدم باقتراح لإحدى دور النشر اللندنية، فتلقى رداً مقتضباً مفاده أن الدار لا تعتزم نشر شيء للأدباء العرب، وأنها ستكتفي في المستقبل بنشر ترجمات لإبداعات أديبات عربيات فقط.

وعلى الرغم مما سبق فإن هناك بعض الجهود المحمودة، لكنها قليلة -التي تقوم بها بعض دور النشر في الغرب- إلا أن ما تنشره هذه الدور يمر دون أي اهتمام يذكر من النقاد أو مراجعي الكتب. والسبب في ذلك -برأي إدوارد سعيد- هو «كأن هناك ستارة حديدية من اللامبالاة والتحامل تحول دون الاهتمام بأي نص لا يردد اللازمات المعهودة عن الإسلام، والعنف، والشهوانية»[15] هذه الستارة الثقافية، الدينية المنشأ، اتخذت أبعاداً سياسية لاسيما بسبب الصراع العربي- الإسرائيلي منذ النصف الثاني من القرن العشرين. ففي الغرب -برأي سعيد- هناك إحساس بأن العالم العربي وكر يعجّ بالمسلمين المجانين أو الإرهابيين[16] مما يجعل من الصعب جداً إزاحة مثل هذا الإحساس المجحف من الوجدان الغربي واستبداله بإحساس آخر موضوعي[17].

«وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم»

في مثل هذه الأجواء المحبطة، وعلى الرغم من كل الظروف، كرس جونسون ديفيس نفسه لنقل ما يستطيع من الأدب العربي الحديث إلى الإنجليزية. نشأ جونسون ديفيس، بحكم عمل أبيه، في بلدين عربيين هما: مصر والسودان، لكن والده اضطر لإعادته إلى بريطانيا بسبب مرض ألمّ به

وهو لايزال في الثانية عشرة، وهناك أودع في مدرسة داخلية، وكان مقرراً له أن يدرس اللغتين اللاتينية والإغريقية. كان الطفل دنيس مولعاً بلعبة السكواش، وهي الرياضة الوحيدة التي كان يتقنها إلى درجة أنه أصبح بطل المدرسة. إلا أن المدير، بسبب الازدحام الدائم في ملعبيْ المدرسة، وضع قانوناً يمنع الأولاد تحت سن السادسة عشرة من مزاولة هذه الرياضة. وعندما فشل والده في إقناع مدير المدرسة للتراجع عن قراره، وجد نفسه مضطراً لسحب ولده من المدرسة. وهنا برزت مشكلة ماذا يودّ (دنيس) أن يدرس؟ فهاهو قد أخرج من المدرسة، ودراسته للغتين اللاتينية والإغريقية كانت متعثرة. وعندما يسأله أبوه عمّا يرغب في دراسته، يقول له من دون تفكير: أريد أن أدرس العربية. كان دنيس قد نشأ يتكلم العربية بطلاقة في وادي حلفا مع أترابه من السودانيين لكنه الآن قد نسيها. وبسبب صغر سنه، لا يُقبل في جامعة كامبردج، ولذلك يقرر والده أن يرسله إلى كلية الدراسات الشرقية (التي سميت لاحقاً كلية الدراسات الشرقية والإفريقية) في لندن ليقضي فيها عاماً قبل أن يُسمح له بالدخول إلى كامبردج.

لكن عامه اللندني هذا قضاه سُدى، عانى فيه الأمرّين جرّاء العزلة والطقس الذي لم يتأقلم معه إلى يومنا هذا. فلا هو تعلم العربية، ولا هو تهيأ للدخول في عالم كامبردج الأكاديمي المهيب. على أي حال، قضى عاماً فاشلاً آخر في تلك الجامعة العريقة، ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية لتكون له خلاصاً ومنقذاً. وبدلاً من أن يُساق للجندية، يبتسم له الحظ عندما يتلقى اتصالاً من هيئة الإذاعة البريطانية للعمل متدرباً في القسم

العربي. وهناك تبدأ دراسته الجدية للغة العربية، إذ يعيش ويعمل مع عشرين ناطقاً من أبناء العربية يكونون له بمثابة جامعة ثالثة -على حدّ تعبيره- وهناك يتعرف على مدير القسم العربي، نفل بربور. وهو من أوائل المستعربين الذين انتبهوا للنهضة الأدبية العربية الحديثة، فترجم بعضاً من كتابات توفيق الحكيم، كما تعرّف هناك على إي.هـ. باكستن الذي ترجم الجزء الأول من سيرة طه حسين الذاتية.

وما إن تمكن من العربية حتى بدأ بترجمة بعض قصص محمود تيمور ونشرها في بعض المجلات، لكنه ترك عمله في هيئة الإذاعة البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى القاهرة لتدريس الترجمة العربية في المعهد البريطاني. وهناك يعمل مدة سنتين يتعرف خلالهما على عدد من وجوه الفكر والأدب والفن في القاهرة، لكن هذا الأمر لا يروق لمدير المعهد البريطاني الذي يقرر عدم تجديد عقده، نكاية به، ويأتي هذا القرار صفعة كبيرة، لاسيما أنه قد تزوج في هذه الأثناء، وليس لديه ما يُمكّنه من البقاء في القاهرة. لكنه يتذكر الآية القرآنية الكريمة (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) (البقرة: ٢١٦). وبينما كان يسير لوحده في يوم من الأيام، يلتقيه أستاذ يعمل في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقاً) ويدعوه للتدريس في القسم، حيث يقضي فيه عامين أيضاً، وكان هذان العامان من أسعد أيامه الأكاديمية على الإطلاق، وكان من بين طلابه هناك إحسان عباس والناقدة فاطمة موسى، أم الروائية أهداف سويف. كان جونسون ديفيس خلال عمله في المعهد البريطاني قد ترجم

مجموعة قصصية لمحمود تيمور، الذي تعرف عليه هناك، ومن خلاله تعرف أيضاً على الأدباء المصريين الشباب. وقد قام بنشر هذه المجموعة القصصية على حسابه الخاص عام ١٩٤٧م. وقد تكون هذه المجموعة، التي كتب مقدمتها عبد الرحمن عزّام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية، أول ترجمة إنجليزية لمجموعة قصصية عربية.

مع الرواد

كان جونسون ديفيس يزور توفيق الحكيم في مكتبه في صحيفة «الأهرام» أو يلتقيه في أحد مقاهيه المفضلة في شارع قصر النيل. فلما قرأ روايته «يوميات نائب في الأرياف» خطر له أن يترجمها لكن الحكيم أخبره أن أبا إيبان، الذي كان ضابطاً في الاستخبارات العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وصار وزير خارجية إسرائيل لاحقاً، قد سبقه إلى ذلك. لكنه عزم على تقديمها للمستمعين ضمن البرامج الإنجليزية التي كانت تبثها الإذاعة المصرية التي وجد فيها جونسون ديفيس منفذاً يبث عبره ترجماته لقصص عدد من كتاب ذلك الزمان. وكان دأبه أبداً أن ينشر بعض هذه الترجمات في مجلة Cairo Calling. ومن مسرحيات الحكيم ترجم جونسون ديفيس «ياطالع الشجرة»، «مصير صرصار»، «حمار الحكيم»، «السلطان الحائر» وغيرها. وقد نشر بعضاً من هذه الترجمات ضمن سلسلة المؤلفين العرب التي أقنع جونسون ديفيس الناشر هاينمن بتأسيسها.

كذلك تعرف جونسون ديفيس على نجيب محفوظ خلال إقامته في

القاهرة بين أعوام ١٩٤٥-١٩٤٩م، وكان أول عمل ترجمه لمحفوظ هو قصة قصيرة من مجموعته الأولى «همس الجنون». وعندما قرأ رواية «زقاق المدق» في حوالي العام ١٩٤٧م شعر بأنه لم يُكتب مثلها في العربية من قبل، لكنه فوجئ في إحدى الأمسيات التي كان يقيمها طه حسين أنه لا أحد هناك قد سمع بالرواية أو بكاتبها. ومع ذلك شرع في ترجمتها، لكنه بعد أن أنجز منها الثلث تقريباً تخلى عن مشروعه لظنه أنه لن يجد لها ناشراً. وجونسون ديفيس هو من نصح فليب ستيوارت بترجمة رواية «أولاد حارتنا» وقد نشرها ضمن سلسلة المؤلفين العرب التي أسسها جونسون ديفيس بالاتفاق مع دار نشر هاينمن. وبعد أكثر من أربعة عقود صار خلالها محفوظ علماً بارزاً في مجال الرواية العالمية، ولاسيما أن مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة نشرت له تسع روايات مترجمة إلى الإنجليزية، يُستفتى جونسون ديفيس في أمر ترشيح نجيب محفوظ وغيره من الكتاب العرب (أدونيس، يوسف إدريس، الطيب صالح) لنيل جائزة نوبل في الآداب، فيقع الاختيار على محفوظ كونه الأغزر إنتاجاً والمعروف أكثر لقراء الإنجليزية والفرنسية. ومن الكتب التي ترجمها جونسون ديفيس لنجيب محفوظ بعد نوبل رواية «رحلة ابن فطومة»، ورواية «ليالي ألف ليلة»، وجزء من «أصداء السيرة الذاتية».

أما يحيى حقي فقد قرأ له جونسون ديفيس بعض كتاباته أثناء عمل الأخير في هيئة الإذاعة البريطانية، ولما انتقل إلى القاهرة تعرف عليه شخصياً، فأصبح حقي من أقرب المقربين إليه. ترجم له أكثر من قصة،

وآخر ما نشره هو مجموعة قصصية تضم روايته القصيرة «قنديل أم هاشم» التي نشرتها مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة عام ٢٠٠٤م.

رفض النشر للعرب لأنه غير مشجع

كان جونسون ديفيس يُسرُ لصديقه يحيى حقي، منذ أن تعارفا، عن طموحه في إصدار مجلد يضم عدداً من القصص القصيرة من كل الأقطار العربية. لكن الأمر تطلب عقدين من الزمن قبل أن يتحقق هذا الطموح عام ١٩٦٧م عندما أصدرت مطبعة جامعة أكسفورد هذا المجلد تحت عنوان Modern Arabic Short Stories (قصص عربية قصيرة حديثة)، بعد أن اشترطت على المترجم أن يقوم باحث مرموق بكتابة مقدمة للمجموعة القصصية. وبالفعل كتب هذه المقدمة جون آرثر آربري، رئيس قسم اللغة العربية في جامعة كامبردج آنذاك. لكن الصحف والمجلات الإنجليزية رفضت أن تنشر أي عرض للكتاب أو تُعرِّف به. ومما زاد الطين بلّة أن الحكومات العربية قاطبة لم تشترِ ولو نسخة واحدة، فلم تتمكن دار النشر إلا من بيع عدد محدود من هذا الإصدار. لكن بعض الموزعين في لبنان اشتروا الطبعة الورقية بثمن بخس، ولعلهم كانوا فيها من الزاهدين. وبعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على ذلك الإصدار، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، لا تجد جامعة أكسفورد ما يحفزها على إصدار طبعة ثانية لذلك المجلد.

لكن هذه المجموعة كُتب لها أن تُبعث خلقاً جديداً ضمن سلسلة المؤلفين العرب التي أسسها جونسون ديفيس - كما أسلفنا - كان لدى هذه الدار ومايزال

سلسلة رائجة تدعى سلسلة المؤلفين الأفارقة، تمكن جونسون ديفيس أن ينشر من خلالها أعمالاً لنجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، والطيب صالح. وعندما تساءل جونسون ديفيس عما يفعله إزاء الكتاب العرب الآخرين من العراق وفلسطين الذين لا يمكن إدراجهم ضمن سلسلة المؤلفين الأفارقة، جرى الاتفاق على أن تؤسس دار هاينمن سلسلة للمؤلفين العرب شريطة أن يكون جونسون ديفيس المستشار لهذه السلسلة. وازدهرت السلسلة عدة سنوات تمكنت خلالها من إصدار أربعة وعشرين عنواناً في بريطانيا، الأمر الذي شجع دار القارات الثلاث الأمريكية أن تتولى إصدار ذات العناوين للقارئ الأمريكي. إلا أن مدققي الحسابات في دار هاينمن اكتشفوا في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين أن سلسلة المؤلفين العرب غير مربحة، ولذلك قرروا إغلاقها ما لم تتلق الدعم المالي من العالم العربي، وقدره خمسة آلاف جنيه إسترليني فقط. والمؤسف في الأمر أن جونسون ديفيس لم يجد من العرب من ينجده بهذا المبلغ الزهيد وينقذ السلسلة من الضياع. ومن المفارقة أن يحدث هذا قبيل فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ببضعة أشهر، وأن تشتري الجامعة الأمريكية في القاهرة لاحقاً، وليست أي جهة عربية، حقوق نشر كل ما أصدر في تلك السلسلة.

كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا

في الفصل الثامن من سيرته مع الأدب العربي، يتحدث جونسون ديفيس عن صنوف العنت الذي يلاقيه كل من كتب عليه أن يكون مترجماً للأدب العربي إلى الإنجليزية. فمن جهة، لا توجد دار نشر واحدة في لندن فيها

موظف واحد مهتم بالأدب العربي أو يستطيع أن يقرأ العربية. وهذا على خلاف المترجم من الألمانية أو الفرنسية، الذي لا يختار العمل الذي يود ترجمته بنفسه، بل تبادر دار النشر بتكليفه بالأعمال التي ترتئي ترجمتها ونشرها. أما المترجم من العربية، فعليه أن يبحث عن ناشر أولاً، لكن الغالب أنه يشرع في الترجمة على عجل ويعاني الأمرين بعد ذلك على مهل، وقد لا يجد بعد ذلك كله من ينشر له. ومن جهة أخرى، ليس هناك مردود مادي مُجز للترجمة (وهذا الأمر بالذات جعل أكثر من واحد في مصر، بمن فيهم أستاذ جامعي، يستنتج أن جونسون ديفيس لابد أن يكون جاسوساً، مادامت الترجمة غير مجزية مادياً)! أما ثالثة الأثافي فهي أن القارئ الإنجليزي، بخلاف الفرنسي، معروف بجفوته تجاه كل ما هو مترجم، أو غير إنجليزي، ولاسيما إذا كان هذا الأدب له صلة بالعرب أو الإسلام(١٨). فعلى سبيل المثال، بلغت مبيعات إحدى روايات أمين المعلوف الذي يكتب بالفرنسية أكثر من مليون نسخة في فرنسا، لكن مبيعات الترجمة الإنجليزية لم تتجاوز ألفي نسخة! إذن، إن ترجمة الأدب العربي بضاعة كاسدة، وحال من يشتغل فيها كحال ذلك الرجل الذي قال عنه النابغة الذبياني:

وإن امــــرأً أهـــدى إلــيـك قـصـيـدة

كمستبضع تـمـراً إلـى أرضـ خـيـبـرا(١٩)

بعد نيل نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨م، اقترح جونسون ديفيس على الجامعة الأمريكية في القاهرة منح جائزة سنوية

باسم محفوظ لأفضل رواية عربية. لكن اقتراحه لم يلق آذاناً صاغية إلا حين عاد مارك لنز ليتولى إدارة المطبعة مرة أخرى ١٩٩٥م، ومُنحت أول جائزة في العام التالي. تشمل الجائزة منح ميدالية فضية للفائز، ومبلغ ألف دولار، بالإضافة إلى ترجمة العمل إلى الإنجليزية ونشره من قبل المطبعة. وقد أحرزت الجائزة بعض النجاحات، منها أن مستوى الترجمات كان على مستوى عال من الاحتراف، بالإضافة إلى أن جودة الإخراج والتسويق للكتب المترجمة تضاهي مثيلاتها في الغرب.

ما الحب إلا للحبيب الأول

بعد مغادرته القاهرة عام ١٩٤٩م، تنقل جونسون ديفيس للعمل مندوباً لبعض الشركات أو مترجماً في بعض دول الخليج وإيران، ثم عاد إلى لندن عام ١٩٥٤م، وبعد أن أكمل دراسته في الحقوق، بإلحاح من والده، عمل محامياً. إلا أن هذه المهنة لم تَرُق له، فقرر أن يفتتح مكتب ترجمة باسم خدمات الشرق الأوسط، وكان يقوم بترجمة وثائق قانونية وتجارية. لكنه سرعان ما سئم من هذا العمل الذي لا يوجد شيء «أشد فتكاً بالروح» منه (ص٧٦). وهكذا يغلبه هواه مرة أخرى، فيؤسس مجلة فصلية أدبية عربية بعنوان «أصوات» لم يُكتب لها البقاء سوى مدة اثني عشر عدداً. فيصبح المكتب قِبْلة للكتاب العرب الذين كانوا يزورون لندن، ومن بينهم السيّاب وجبرا إبراهيم جبرا ويوسف إدريس. وكان كل عدد من المجلة ينشر على الأقل قصة عربية واحدة لبعض الكتاب العرب مثل زكريا

تامر وغسان كنفاني والطيب صالح ولويس عوض الذي نشر له جزءاً من رواية «العنقاء» التي كتبها عوض في أواخر عهد الملك فاروق ولم يجرؤ على نشرها إلا عام ١٩٦٦م في بيروت. وهذه الرواية يرى توفيق الحكيم أنها لو نُشرت قبل ذلك التاريخ لغيرت مسار الرواية العربية (ص٥٢). ومن بين الشعراء الذين نشرت لهم مجلة «أصوات» بعض قصائدهم بدر شاكر السيّاب.

وأثناء تحرير جونسون ديفيس لمجلة «أصوات» طلبت منه وزارة الإعلام البريطانية الإشراف على برنامج تلفزيوني أسبوعي مدته ربع ساعة باللغة العربية ليوزَّع على مختلف محطات التلفزة العربية. دام البرنامج سنتين وكان اسمه «أضواء وأصوات»، وكان يتألف من أربع أو خمس فقرات تهم المشاهد العربي. خُصصت إحدى الحلقات -على سبيل المثال- للحديث عن عمر الشريف، وأخرى عن عبدالحليم حافظ، وواحدة عن الرحالة المغربي ابن بطوطة (ص٩٧-٩٨). وما إن حلّ عام ١٩٦٩م حتى نفد صبر جونسون ديفيس مرة أخرى من العيش في بريطانيا، فتسنح له الفرصة للعمل مديراً لإذاعة عربية في إمارات الساحل المهادن (الإمارات العربية المتحدة اليوم)، وكانت الإذاعة مملوكة للحكومة البريطانية حينها. وبعد انسحاب القوات البريطانية، اقترح أن تُسلم الإذاعة للشيخ راشد، حاكم دبي، الذي طلب منه أن يبقى، بعد أن عرض عليه راتباً مضاعفاً، وأن ينشئ أيضاً محطة تلفزيونية ويديرها. وعلى الرغم من كرم الشيخ راشد، لا يجد

جونسون ديفيس بدأ من الإذعان مرة أخرى لهواه الأول: الترجمة. فيقرر الانتقال إلى بيروت حيث يمضي فيها أربع سنوات (ص٩٨-١٠٠).

ذهب الذين أحبهم

من بين اللحظات المحزنة التي يتوقف عندها جونسون ديفيس في سيرته مع الأدب العربي هي سماعه للأنباء الفاجعة التي تحمل له موت هذا الكاتب أو ذاك. وتوقفه عند هذه اللحظات يشير إلى عمق العلاقة الإنسانية التي قامت بين المترجم والكتاب العرب الذين تشابكت مسارات حياتهم مع حياته، ثم ما لبثت أن افترقت، فسنّة الحياة هي «لا يلبث القرناء أن يتفرقوا» كما قال جرير. ومن هذه اللحظات المؤثرة بالذات توقفه عند مرض بدر شاكر السيّاب، الذي اتصل به في يوم من الأيام ليخبره بأنه قد وصل لندن وأنه يرغب في رؤيته. يدعوه جونسون ديفيس لزيارته في مكتبه القريب من الفندق الذي نزل فيه، إلا أن السيّاب يصر على أن يأتي جونسون ديفيس إلى الفندق. وعندما يذهب ويصعد إلى غرفته ويطرق الباب عدة مرات ولا أحد يجيب، يقرر جونسون ديفيس أن يغادر. لكنه في تلك اللحظة يسمع الباب ينفتح ببطء. لقد استغرق فتح الباب من السياب كل هذا الوقت بسبب المرض الذي كاد أن يشل حركته تماماً (ص٧٦-٧٧). وبعد مرافقته إلى أحد الأطباء في لندن وإجراء بعض الفحوصات المؤلمة على عموده الفقري، يقرر الطبيب أن يخبر

السيّاب بالحقيقة المؤلمة: لا أمل! فيعود السيّاب بعد بضعة أيام إلى الكويت، حيث يموت هناك بعد فترة.

الفاجعة الأخرى هي مقتل غسان كنفاني بعد يومين فقط من لقاء جمعهما في بيروت. غادر جونسون ديفيس مطار بيروت في صباح اليوم الذي فجر فيه الموساد الإسرائيلي سيارة كنفاني، وكان أول خبر يراه على التلفزيون بعد وصوله لندن هو مقتل صديقه كنفاني (ص٨١). أما عن يحيى حقي الذي كان أقرب المقربين إليه فينقل خبر موته بكثير من التأثر. يقول إنه في يوم من الأيام من عام ١٩٩٢م. وبينما كان يشق طريقه من القاهرة إلى بيته الريفي في إحدى قرى الفيّوم، سمع من الإذاعة بموت يحيى حقي، فيعلق قائلاً: «يبدو أن بعض الناس يستطيعون أن يحضروا جنازات أصدقائهم دون أن يتأثروا. أما أنا فلست من هؤلاء، فواصلت طريقي»(ص٤٩). أما موت بُولند الحيدري عام ١٩٩٦م فقد كان صاعقة بالنسبة إليه. ففي إحدى زياراته المتكررة إلى لندن التي استقر فيها الحيدري مع زوجته، اتصل جونسون ديفيس بمنزل الحيدري، وبعد تبادل المجاملات المعتادة مع زوجة صديقه، طلب منها أن يكلم بولند، فإذا بها تخبره أنه قد مات للتو (ص٦٨).

أما توفيق صايغ وموته فلجونسون ديفيس معهما حكاية أخرى تفرعت أصلاً عن إصداره لمجلة «أصوات»، إذ كان من نتيجة هذه المجلة الأدبية أن قام ممثل عن مجلس الحرية الثقافية الأمريكي، واسمه جون هنت، بزيارة

جونسون ديفيس. كان هنت يعمل حينها في فرع باريس للمجلس الذي كان يموّل إصدار مجلة Encounter الإنجليزية ونظيرتيها Preuves الفرنسية وDer Monat الألمانية، فجاء إلى لندن طالباً من جونسون ديفيس المشورة فيمن سيكون محرراً مناسباً لمجلة ثقافية عربية من هذا القبيل. وبالفعل يرشح جونسون ديفيس الشاعر توفيق صايغ لهذه المهمة، وكان يعمل حينها أستاذاً للعربية في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن. وبالفعل وافق صايغ وصدرت المجلة تحت عنوان «حوار». لكن جونسون ديفيس، الذي ظن في بادئ الأمر أنه أسدى خدمة جليلة لصديقه توفيق، راحت تساوره الشكوك حول هذه المجلة، فيقنع صديقه بضرورة زيارة جون هنت في باريس. وهناك يدّعي هنت أنه لا داعي للقلق، فكل شيء «على المكشوف» فيما يتعلق بالمجلة وممولها. إلا أنه ما إن مضت بضعة أشهر على ذلك اللقاء، حتى أعلن أن وكالة الاستخبارات الأمريكية هي الممول الفعلي لمجلس الحرية الثقافية. وبعد افتضاح الأمر، قامت الدنيا، ولم تقعد على رأس توفيق صايغ، المُغرّر به، وكان يومها يعيش في بيروت، فيقرر الالتحاق بجامعة كاليفورنيا، بيركلي، حيث مات هناك بنوبة قلبية (ص٧٠-٧٢). هاجس المخابرات هذا يرتبط أيضاً في وعي جونسون ديفيس حين يتذكر لقاءه الأخير بجبرا إبراهيم جبرا. فقبل موته ببضعة أشهر كان جبرا في زيارته الأخيرة للقاهرة، فيزوره جونسون ديفيس في الفندق، وعندما يسأله بكل براءة عن الأوضاع في

بغداد، يلاحظ أن جبرا، الذي كان مسكوناً بهاجس أجهزة التنصت في كل مكان، راح يتلفت إلى زوايا الغرفة. لكن جبرا لا يجيبه عن سؤاله إلا بعد خروجهما إلى الهواء الطلق. وبعد بضعة أشهر من ذلك اللقاء، يتعرض جبرا لنوبة قلبية أخرى، تودي بحياته هذه المرة (ص٧٤).

لا يفاجئنا حديث جونسون ديفيس عن موت أصدقائه من الكتاب العرب بتأثر واضح، فهذا أمر طبيعي لمن آثر العيش بين العرب على العيش بين أبناء جلدته، إلا أن اللافت للنظر، بل المُستغرب، هو عندما يمر على خبر موت أبيه مرور الكرام. فبعد أن اقترب أبوه من سن التقاعد، كان يأمل أن يعود إلى السودان، الذي قضى فيه أياماً سعيدة من قبل، ليعمل محاضراً في القانون في جامعة الخرطوم. ومع أن السفير السوداني في لندن آنذاك، ووزير الخارجية لاحقاً، جمال محمد أحمد توسط مع الحكومة السودانية، إكراماً لوالد «السوداني الأبيض الوحيد» (يقصد جونسون ديفيس نفسه)، تفشل جهوده بسبب تجاوزه السن القانونية. فيقرر والده أن ينتقل للعيش في جزر الكناري، حيث يموت هناك من الملل، حسبما يزعم جونسون ديفيس (ص٨٨). هذا التناقض الصارخ في موقفه المتباين من موت أبيه غير مفهوم، في أحسن الأحوال، إن لم يكن مستهجناً. الموت بحد ذاته ليس بذلك الأمر المستغرب، بل ما يجعله فاجعاً هو إما السبب الذي أدى إلى الموت (كموت توفيق صايغ كمداً) أو الظروف التي يتلقى فيها الحيّ خبر موت صديق عزيز (كموت بولند الحيدري، أو مقتل يحيى الطاهر

عبدالله في التاسعة و الثلاثين من عمره بحادث سيارة بينما كان جونسون ديفيس يعد مقدمة كتبها لمجموعة قصصية ترجمها للكاتب وعلى وشك أن تصدر) أو كيف يتحول إنسان يقبل على الحياة بنهم وشغف، مثل يوسف الخال، ثم يغادرها وليس له من صورته الأولى سوى شبح ضئيل.

عليّ صوْغ المعاني من معادنها

هناك حادثتان يذكرهما جونسون ديفيس في سيرته، تلقي الأولى منهما الضوء على استبطانه اللاواعي للعادات العربية إلى درجة أنها أصبحت تحرك سلوكه حتى وهو في لندن، أما الثانية فتلقي الضوء على الثمن الذي وجب عليه أن يدفعه بسبب اختياره للعيش بين العرب. الحادثة الأولى تقع بعد عودته من الشرق الأوسط إلى لندن سنة ١٩٥٤م، حيث كان يمر كل صباح على كشك ليشتري منه علبة سجائر. وفي يوم من الأيام، طلب من البائعة علبته المعهودة، فلما مدّ يده في جيبه تبين له أنه نسي محفظة نقوده في البيت، فقال للفتاة إنه سيدفع لها في اليوم التالي، فإذا بيد الفتاة تختطف العلبة قبل أن تصل إليها يده. فتذكّر على الفور أنه في لندن وليس في مصر (٧٥-٧٦). يقول عن هذه الحادثة إنها كانت من جملة الأشياء التي عززت له مرة بعد أخرى كرهه للعيش في بريطانيا. أما الحادثة الثانية فهي على النقيض تماماً من الأولى. ففي يوم من الأيام، يسأله أحد طلابه المصريين، واسمه محمد حبيب، وقد كان هذا بحاراً

على اليخت الملكي «المحروسة» وعضواً في جماعة الإخوان المسلمين، سؤالاً بسيطاً: هل أنت جاسوس؟ ويتفهم جونسون ديفيس هذا السؤال الغريب رغم صدوره من شخص أودع عنده مخطوطة سرية عن حياته على متن «المحروسة» تحسباً لمداهمة المباحث لمنزله. فعلى خلاف الإنجليز في القاهرة، لم يكن جونسون ديفيس يعيش عيشة راقية في إحدى الشقق الفخمة في الزمالك، ولم يكن يتردد على النادي الإنجليزي. إذن لابد أن يكون جاسوساً. وبعد خمسين عاماً من تلك الحادثة، يكتب أحد «الأكاديميين» المصريين مقالة في جريدة الأهرام يدّعي أيضاً فيها أن جونسون ديفيس كان يعمل جاسوساً في أثناء الحرب العالمية الثانية، على الرغم من أن جونسون ديفيس لم يكن في مصر خلال هذه الفترة! ويعلق جونسون ديفيس بمرارة: «عبّر كثير من أصدقائي عن أسفهم واعتذارهم، أما أنا فلم أفعل أكثر من أن أقول لنفسي: هذا هو الثمن الذي يجب على المرء دفعه لقاء محاولته غرس جذور لنفسه في تربة غريبة» (٦١).

لم تكن هذه المنغصات تمثل حالة معزولة -للأسف- فهذا كاتب مصري شاب، لم يترجم له جونسون ديفيس، يوبخه في شقة إدوار الخراط ذات مساء قائلاً: من أنت لتقرر ماذا تترجم ولمن تترجم؟ عليك أن تذهب إلى وزارة الثقافة، وهي التي تقرر لك ذلك! وذاك أحد «الأكاديميين» السوريين يوبخه أيضاً توبيخاً لاذعاً في أحد مدرجات جامعة حلب (التي لم يُسمّها جونسون ديفيس، لكن الحادثة وبطلها معروفان لي شخصياً)؛

لأنه لم يترجم عنوان مسرحية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» ترجمة حرفية! فيقرر رئيس قسم اللغة الإنجليزية، تعاطفاً مع زميله العنيد وردعاً لهذا الإنجليزي الوقح، أن يلغي المحاضرة الثانية التي كان مقرراً أن يلقيها جونسون ديفيس عصر ذلك اليوم عن الترجمة (ص٣٧). أما يوسف إدريس، الذي يقول عنه: «كان يبالغ في غروره الأدبي في بعض الأحيان إلى درجة مخجلة»، فيقول لجونسون ديفيس في يوم من الأيام: إنك أخطأت خطأ فادحاً لأنك لم تكرّس وقتك كله ومواهبك لترجمة أعمالي وحدي (ص٨٩). وفي مرة أخرى، ينتقده إدريس علناً لأنه نشر قصة الطيب صالح «دوْمة ودْ حامد» في أحد أعداد «أصوات» بدعوى أنها قصة فقيرة (ص٩٠). ويحيى الطاهر عبدالله، الذي ترجم له جونسون ديفيس مجموعة قصصية، يحتج على اشتراط دار هاينمن أن يتقاسم المترجم والكاتب العائدات مناصفة، فيقول مستخفاً به بكل فجاجة: «لكن ما أنت إلا مترجم»(ص١٠٤). وعندما يذهب جونسون ديفيس لمقابلة وكيل وزارة الثقافة المصري، لعله يضمن شراء وزارته عدداً معيناً من ترجمته لمجموعة يحيى الطاهر عبدالله، يصدمه هذا الوكيل بسؤال غريب: «ولماذا تضيع وقتك في ترجمة أعمال هذا المتشرد؟»(ص١٠٥). أما لقاؤه الأول مع سلوى بكر فكان عاصفاً، لأنه تجرأ واقترح عليها أن تجري بعض التعديلات على بعض القصص، وكانت قد عرضتها عليه وهي لا تزال مخطوطة، فتجيبه: «ومَنْ أنت؟ مترجم أم مدرّس كتابة؟»(ص١١٨).

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

يقول جونسون ديفيس إن اهتمامه بالحيوانات يعود إلى طفولته المبكرة في السودان وكينيا، حيث أدت الحيوانات دوراً مهماً في تكوين شخصيته في مرحلة لاحقة. في تلك البيئة الإفريقية كان الناس على تماس مباشر مع الحيوانات، بما فيها الوحوش الكاسرة والحشرات السامة. ويتذكر كيف كان يصطاد مع الصبيان العصافير والفراش والعناكب وكيف يتفننون في تعذيبها وقتلها. وتظل ذكرى تعذيبه لعنكبوت مخيف وقتله للعصافير من أجل التسلية محفورة في ذاكرته لا تتزحزح. ثم يمضي عليه حين من الدهر يطّلع بعده على رأي لمستشرق فرنسي يقول فيه: إن الإسلام أولى اهتماماً خاصاً بالحيوانات أكثر من الديانات السماوية الأخرى، وإن هذه المسألة لم تجد من يدرسها دراسة وافية. فيعود جونسون ديفيس إلى القرآن الكريم ليجد أن عدداً من السور سُميت بأسماء الحيوانات، كما يجد في الأحاديث النبوية مادة غزيرة تحض كلها على الرفق بالحيوان، فتوقظ فيه هذه القراءات إحساساً بالذنب لا يريم. ثم يجد أن الجاحظ سمّى أحد كتبه بكتاب «الحيوان»، والدميري ألّف كتاباً جامعاً عن الموضوع «حياة الحيوان الكبرى». ناهيك بحكايات «كليلة ودمنة»، كما يجد مؤلفاً لإخوان الصفا بعنوان «تداعي الحيوانات على الإنسان». فكان من ثمرة هذه القراءات أن اتخذ من هذا الكتاب الأخير مادة لكتاب نشره بعنوان «جزيرة الحيوان» وكتب له مقدمة عن حقوق الحيوان في الإسلام. كما

نشر مجموعة أخرى بعنوان «حكايات من العالم العربي عن الحيوان» اقتبس مادته من «ألف ليلة وليلة»، و«كليلة ودمنة»، وكتاب آخر اسمه «فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب».

قد يكون التفات جونسون ديفيس إلى الكتابة عن الحيوان مدفوعاً بإحساس حقيقي بالذنب كما يقول (ص١٢٧)، ولكنه قد يكون أيضاً تلبية لإحساس إبداعي ضاغط للخروج من إسار الترجمة إلى فضاء التأليف الرحب، وجونسون ديفيس ليس مترجماً فقط بل هو كاتب أيضاً. إلا أن انصرافه إلى الترجمة وانهماكه في عوالمها الآسرة التي أصابته بالإدمان أرجأ لديه ذلك الحافز الإبداعي. فالترجمة، على الرغم مما فيها من إبداع، قد تكون في الوقت نفسه مثبطة لحوافز إبداعية أخرى لا تقل أهمية عنها[٢٠]. وقد يكون هناك سبب ثالث وهو رغبته في أخذ استراحة محارب من معركة طالما خاضها وحيداً، وطالما جلبت عليه المنغصات من أناس لم يُقدّروا أن كفاحه كان -في نهاية المطاف- من أجلهم.

وأيّ الناس تصفو مشاربه؟

أما بداية اهتمام جونسون ديفيس بالكتابة للأطفال فكانت بتكليف من صديق سوري ثري يعيش في بريطانيا، وكان ابن هذا الثري لا يعرف العربية ولا يعرف شيئاً عن الإسلام. فكلّف هذا الثري صديقه جونسون ديفيس أن يكتب سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- باللغة الإنجليزية، ودفع أتعابه مقدماً. وبعد فترات من التردد العصيب تعود لكونه يكتب

للأطفال لأول مرة، انتهى من الكتابة وسلّم المخطوطة للثري السوري الذي أرسلها بدوره إلى خبير في التاريخ الإسلامي في المملكة العربية السعودية ليضمن خلو الكتاب من أي أخطاء تاريخية أو من أي شيء يوجب الاعتراض. ويأتي تقرير الخبير منوهاً بوجود بعض الأخطاء المزعومة في الكتاب، وبعد أخذ وردّ خجولين مع المموّل السوري، يحتكم جونسون ديفيس إلى رأي صديقه المصري، د. عزالدين إبراهيم، أستاذ الأدب العربي في جامعة الملك سعود سابقاً الذي له باع طويل في التاريخ الإسلامي، وكان حينها في زيارة إلى لندن. فيخلص الحكم إلى أن السيرة التي كتبها جونسون ديفيس لا غبار عليها، وأن «الخبير» هو من توهّم هذه الأخطاء، بل احتوى تقريره المكتوب باللغة العربية على ثلاثة أخطاء نحوية! وهكذا يزول سوء التفاهم مع الممول، لكنه لم يجد للكتاب ناشراً في بريطانيا. وأخيراً، أعطى الثري السوري الكتاب لرياض الريس الذي قرر في هذه الأثناء أن ينقل مقر دار نشره إلى بيروت. وهناك يقرر القائمون على الدار «تصحيح» ما توهّموه أخطاء لغوية بالإنجليزية ارتكبها ابن اللغة الإنجليزية! فكانت النتيجة أشبه بالمهزلة (ص١١٩-١٢١).

لكن هذه التجربة المرة في الكتابة للأطفال مهدت الطريق لكتابين أحدهما عبارة عن مجموعة من حكايات جحا والثاني مجموعة من الحكايات الشعبية المصرية، وقد قام المجلس الثقافي البريطاني في القاهرة بتمويل نشر هاتين المجموعتين (١٢١). كذلك ترجم قصة «حي

بن يقظان» لابن طفيل عن نسخة مبسطة أعدها الشاعر صلاح عبد الصبور للأطفال، ونشرها تحت عنوان «وحيداً في جزيرة مقفرة». كما نشر كتاباً بعنوان «حكايات من السودان». استقى حكايته الرئيسة من مجموعة «سالي فو حمر» للكاتب السوداني جمال محمد أحمد، وهذه الأخيرة عبارة عن مجموعة من الحكايات التراثية من مختلف الأقطار الإفريقية. ثم توالت الكتب التي راح يكتبها للأطفال حتى بلغت أكثر من خمسة عشر عنواناً، استقى مادتها من «ألف ليلة وليلة»، ومن الأساطير عند العرب، والتاريخ العربي- الإسلامي. وقد تولت دار الشروق المصرية نشر هذه الكتب بالإنجليزية. وهناك أربع مجموعات قصصية مستمدة من بيئة الخليج العربي تعهدت دار نشر في دبي بنشرها.

قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم

وكما كان التفات جونسون ديفيس إلى الكتابة للأطفال بتكليف من صديق، كذلك كان توجهه نحو ترجمة النصوص الإسلامية بدعوة من صديق. ففي إحدى زياراته للإمارات العربية المتحدة، التقى جونسون ديفيس صديقه القديم، د. عز الدين إبراهيم، وكان يشغل حينها منصب المستشار الثقافي للشيخ زايد، رئيس دولة الإمارات آنذاك. فاقترح عليه أن يتعاونا على ترجمة الأحاديث النبوية الشريفة المعروفة باسم «الأربعون النووية»، وهكذا كان. وقام بنشر الترجمة الناشر السوري بسام

أسطواني، صاحب دار القرآن الكريم للنشر. لاقت الترجمة نجاحاً هائلاً، بفضل جهود عز الدين إبراهيم ودعم الشيخ زايد، فصدرت في عشرين طبعة، عدا عن طبعات القرصنة. ثم تولت طباعة هذه الأحاديث لاحقاً جمعية النصوص الإسلامية في جامعة كامبردج ودار الشروق المصرية.

وبعد هذا النجاح قرر الصديقان أن يصدرا ترجمة للأحاديث القدسية، أيضاً بدعم من الشيخ زايد، ومجموعة «الكلم الطيب». وهي الأحاديث الشريفة التي اختارها ابن تيمية. وهما الآن بصدد إصدار ترجمة مختارات من القرآن الكريم، مرتبة حسب موضوعاتها، أي أن يأتيا بكل الآيات القرآنية الكريمة من مختلف السور التي تعالج موضوعاً معيناً. مشروع الترجمة الدينية الوحيد الذي قام به لوحده هو ترجمة فصل من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي عن واجبات الضيف وآداب الطعام في الإسلام، وقد نشرته جمعية النصوص الإسلامية سنة ٢٠٠٠م.

أمّتي، هل لك بين الأمم منبر للسيف أم للقلم؟

في أكثر من موضع في سيرته مع الأدب العربي، تلك السيرة التي لقيت من الإحباط والإخفاق ما لا يقل عن النجاح، يتساءل جونسون ديفيس لائماً المؤسسات الرسمية العربية على تقاعسها عن بذل أي جهد لترجمة الأدب والثقافة العربيين. يقول في أحد المواضع: «ترى، ما الذي كان سيؤول إليه الأدب العربي الحديث المترجم لولا جهود مطبعة الجامعة الأمريكية التي كانت مسؤولة عن نشر ثلاثين عملاً من أعمال (نجيب

محفوظ) بالإنجليزية وأكثر من خمسين عملاً للكتاب العرب الآخرين؟» ص(١١٦). كما يذكر بمرارة كيف ضاعت سُدى جهود الكاتب والناقد المصري عبده جبير للفت انتباه المؤسسات الرسمية العربية إلى الدور الذي كانت تؤديه سلسلة المؤلفين العرب في إيصال الأدب العربي للغرب(١٠٧). وعندما يذكر ما قاله برنارد لويس عن الاختلاف الشاسع بين ترجمات لآية بعينها من القرآن الكريم إلى درجة يظن معها القارئ وكأن كل مترجم يتعامل مع آية مختلفة تماماً، يتساءل عن دور الأزهر وكيف لم تقم هذه المؤسسة العريقة بجمع هيئة من العلماء والخبراء والمترجمين ليصدروا ترجمة رسمية لمعاني القرآن الكريم (ص٩٤). وعندما يجري مقارنة سريعة بين العرب أيام الخليفة العباسي المأمون وبين عرب اليوم، يخرج برأي مفاده أن: «العرب الأوائل كانوا، فيما يبدو، أكثر تقديراً لمترجميهم»(ص١٣١).

دار كوارتت التي كانت فيما مضى أكثر دار في بريطانيا حماسة لنشر الأدب العربي توقفت اليوم عن إضافة أي عناوين جديدة إلى قائمة إصداراتها، وكذلك توانت مطبعة القارات الثلاث الأمريكية عن نشر الأدب العربي المترجم بعد دخول حيتان النشر الأمريكيين على خط المنافسة، لكن في المقابل هناك الآن هارفل برس التي راحت تنفتح على نشر الرواية العربية المترجمة. كما أن مجلة Banipal البريطانية تعنى منذ سنوات بنشر الأدب العربي الحديث والتعريف به، وذلك بمبادرة فردية من مارغريت أوبانك وزوجها العراقي صموئيل شمعون الذي يصدر أيضاً مجلة Kikah الإلكترونية بنسختين واحدة إنجليزية والأخرى فرنسية.

وفي بريطانيا أيضاً هناك مجلات مثل Arabic and Middle Eastern Literatures ومجلة Azure التي تموّلها ليبيا. وفي هولندا هناك مجلة Journal Arabic Literatur، أما أمريكا ففيها عدد من المجلات تصدر ترجمات للأدب العربي باللغة الإنجليزية وهي Al- Arabiyya وتصدرها الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية، ومجلة Al-Jadid ويصدرها أكاديمي لبناني، ومجلة Edebiyat وتصدرها إحدى الجامعات الأمريكية. ومن دور النشر الغربية المهتمة بنشر الأدب العربي المترجم دار سندباد في باريس، وكذلك منظمة اليونسكو، وإنترلنك في الولايات المتحدة. أما المبادرة الفردية التي تستحق الإعجاب والتقدير بامتياز فهي مبادرة الشاعرة والأكاديمية الفلسطينية د. سلمى الخضراء الجيوسي التي أطلقت مشروع «بروتا» لترجمة الأدب العربي الحديث، وكان من ثماره إصدار العديد من الأنثولوجيات الأدبية العربية باللغة الإنجليزية، ناهيك بتأسيسها -بعد ذلك- «رابطة الشرق والغرب» التي ضمت إليها مجموعة متميزة من الكتاب والمثقفين في أوروبا وأمريكا.

تقارير التنمية البشرية التي أصدرتها الأمم المحدة في السنوات الأخيرة كانت تشير دوماً إلى ضعف الجهد الترجمي في العالم العربي إلى درجة أن مجموع ما تترجمه البلدان العربية مجتمعة أقل بكثير مما تترجمه دولة واحدة مثل إسبانيا أو اليونان. صحيح أن عالمنا العربي يغلب عليه نمط الاستهلاك أكثر من نمط الإنتاج، ليس في مجال الغذاء والصناعة فحسب، بل حتى في مجالات المعرفة المختلفة، لكنه -بلاشك- بحاجة إلى مضاعفة جهوده الترجمية ولاسيما في مجال العلوم البحتة

والطبية والتطبيقية. واستجابة لهذه التقارير تأسست عدة مراكز في الوطن العربي لهذا الغرض مثل المركز القومي للترجمة (مصر)، مشروع المنظمة العربية للترجمة (بيروت)، مشروع مركز البابطين بالتعاون مع دار الساقي في لندن ومشروع الترجمة الذي ترعاه مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في دبي، وكل واحد من هذه المشروعات لديه خطة طموحة وهي ترجمة ألف كتاب إلى العربية.

صحيح إننا مقصرون في الترجمة إلى العربية، لكننا ملومون أكثر على تقصيرنا في الترجمة من العربية. وبما أنه ليس لدينا من الإنتاج المعرفي بضاعة تصلح للتصدير إلا ما يكاد ينحصر في العلوم الإنسانية، وبما أننا نعاني من حالة من الاستلاب الثقافي تجاه الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة التي راحت بعض فضائياتنا العربية تتهافت على الترويج حتى لأتفه ما تنتجه هذه الثقافة من بضاعة كاسدة لا تجد من يروّج لها -مثلاً- في أوروبا العريقة بثقافتها الراقية، فالأجدر بنا أن نعمل على مدّ جسورنا الحضارية إلى الغرب بأيدينا أو بدعمنا نحن، وإنشاء المؤسسات لهذا الغرض. أليس معيباً أن تستطيع د. سلمى الخضراء الجيوسي، بجهودها الفردية، أن تنجز ما لم تستطعه وزارات الثقافة في الوطن العربي قاطبة؟ إنه لشيء يثلج الصدر أن تطلق «جائزة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز العالمية للترجمة» سنة ٢٠٠٧م، ومما يثلج الصدر أكثر أنها من بين مشروعات الترجمة العربية التي قامت في الأونة الأخيرة هي المشروع العربي الوحيد الذي أولى اهتماماً لترجمة العلوم الإنسانية والاجتماعية من العربية إلى اللغات الأخرى، في دعوة

واضحة إلى التواصل الفكري والحوار الثقافي بين الأمم وإلى التقريب بين الشعوب، وهي دعوة في اتجاهين لا اتجاه واحد نكون فيه نحن المستهلكين لا المنتجين. ولئن اضطلعت المملكة العربية السعودية بالقيام بمثل هذه الخطوة الرائدة، وهي أكثر من تعرضت صورتها للتشويه بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فعلى الدول العربية الأخرى أن تحذو حذوها، لا أن تلقي العبء كله على شقيقتها الكبرى، فيصح على هذه الدول قول الشاعر:

ألـهـى بـنـي تـغـلـب عـن كـل مـكـرمـة

قـصـيـدة قـالـهـا عـمـرو بـن كـلـثـوم

أليس حرياً بنا، قبل غيرنا، أن نتكاتف جميعاً لنقل أدبنا وثقافتنا إلى الغرب، ولاسيما في عصر يروّج فيه - حتى في بعض الإعلام العربي للأسف- أن العرب لا يتقنون إلا صناعة الموت ولا يتاجرون إلا في الإرهاب؟

إحالات

١ - See Edward W. Said، Orientalism، P. 38، see also Halim Barakat. The Arab World، Society، Culture، and State، pp.13-15، 19.

٢ - See Raphael Patai، The Arab Mind، p. 108.

٣- Ibid، pp. 72-83.

٤ - Denys Johnson. Davies، Memories in Translation، p. 9.

٥ - See Edward W. Said، Orientalism، pp. 19-52.

٦- See Edeard W. Said، The World، the Text، and the Critic، pp. 271-2.

انظر كذلك كتابي كل من سهير القلماوي، وماهر البطوطي.

٧- لمزيد من المعلومات عن ظروف ترجمة ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية، انظر د. عبدالواحد شريفي.

٩ - See Husain Haddawy's "Introduction" to The Arabian Nights، p. xvi.

٩ - Ibid، p. xxi.

١٠ - Johnson Davies، Memories in Translation، p. 78.

١١ - يوسف عبدالعزيز، «الشاعرة سلمى الجيوسي أنجزت عمل مؤسسة»، جريدة «الحياة» لندن ٣٠/٣/٢٠٠٨م.

١٢ - المصدر السابق.

١٣ - كررت الجيوسي هذا الاتهام في مقابلة أجرتها قناة دبي الفضائية معها ضمن برنامج «نلتقي مع بروين حبيب» (حلقة ٢٠/٤/٢٠٠٨م).

١٤ - See Johson Davies، Memories in Translation، p. 21.

١٥ - Edward W. Said،"Embargoed Literature"، p. 374.

١٦ - Edward W. Said،"A Formula for More Husseins"، p. 351.

١٧- في حلقة ٢٠ / ٤ / ٢٠٠٨م من البرنامج الأسبوعي «نلتقي مع بروين حبيب» الذي تبثه قناة دبي الفضائية، أعربت الجيوسي عن تفاؤلها بنجاح مشروع «بروتا»، وعن سعادتها بأن كل إصدارات المشروع تلاقي ترحيباً نقدياً واسعاً في الأوساط الأمريكية، رغم كل الضغوط من قبل اللوبي الصهيوني.

١٨- لمقارنة بين الموقفين الفرنسي والإنجليزي تجاه العالم العربي والإسلام، انظر كتاب إدوارد سعيد، The World، the Text، and the Critic، p. 268-289.

١٩- الميداني «مجمع الأمثال»، الجزء الثالث، ص٣٥.

٢٠- انظر رضوان زيادة، «كيف تصبح الترجمة عائقاً أمام الإبداع؟» «الحياة» لندن، ١٠ / ٤ / ٢٠٠٨م، وانظر كذلك الرد عليه لعبدالسلام بنعبد العالي، «أليست الترجمة في حد ذاتها إبداعاً؟»، «الحياة» لندن، ١٧ / ٤ / ٢٠٠٨م.

المراجع

أولاً : مراجع باللغة العربية

- البطوطي، ماهر. «الرواية الأم ألف ليلة وليلة والآداب العالمية : دراسة في الأدب المقارن»، القاهرة : مكتبة الآداب، ٢٠٠٥م.
- بنعبد العالي، عبدالسلام. «أليست الترجمة في حد ذاتها إبداعاً؟» الحياة ٢٠٠٨/٤/١٧م.
- جونسون ديفيز، دنيس، «وجهاً لوجه : دنيس جونسون ديفيز وكامل يوسف حسين. »العربي ٥٣٦ (٢٠٠٣م).
- زيادة، رضوان. «كيف تصبح الترجمة عائقاً أمام الإبداع؟» الحياة ٢٠٠٨/٤/١٠م.
- شريفي، عبدالواحد. «أنطوان جالان وألف ليلة وليلة» الآداب الأجنبية ٩٨ (١٩٩٩م)، ٥٦-٦٤.
- عبدالعزيز، يوسف. «الشاعرة سلمى الجيوسي أنجزت عمل مؤسسة». الحياة ٢٠٠٨/٣/٣٠م.
- القلماوي، سهير. «ألف ليلة وليلة» القاهرة : مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م.
- الميداني. «مجمع الأمثال» صيدا وبيروت: المكتبة العصرية. ٢٠٠٧م.

ثانياً: مراجع باللغة الإنجليزية

-Ahtoma، Salih J. Modern Arabic Literature in Translation، A Co -panion. London، Saqi، 2005.

- Baakat، Halim. The Arabic World، Society، Culture، and Starte. Berkeley، University of California Press، 1993.

- Haddaway، Husain. "Introduction". The Arabian Nights. Translated by Husain Haddawy. New York & London، W.W. Norton & Company، 1990.

Johnson-Davies، Denys. Memories in Translation، A Life between -
the Lines of Arabic Literature. Cairo & New York، The American
.University in Cairo Press، 2006

.Patai، Raphael. The Arab Mind. New York، Charles Scribner's Sons، 1976 -

.Ranelagh، E. L. The Past We Share. London، Quarter Books، 1979 -

Said، Edward W. (1990). "Embargoed Literature". Reprinted in The -
Politics of Dispossession، The Struggle for Palestinian Self-Determ -
.nation 1969-1994. New York، Pantheon Books، 1994. 372-378

-A Formula for More Husseins". Reprinted in Power، Pol " (1991) -
tics and Culture. Edited with an introdcution by Gauri Viswanathan.
.London، Bloomsbury، 2005. 349-351

.Orientalism. New York Penguin Books، 1978 -

-The World، the Text، and the Critic. Cambridge، MA، Harvard Un -
.versity Press، 1983



د. موسى أحمد الحالول

- تاريخ الميلاد ومكانه: ١٩٦٥ الرقة، سوريا

• الشهادات العلمية

- دكتوراه فلسفة في الأدب المقارن، جامعة پنسلڤانيا الحكومية، الولايات المتحدة، ١٩٩٥.

• الوظائف والخبرات

- أستاذ مشارك، قسم اللغات الأجنبية، جامعة الطائف، السعودية. كما درس في جامعة تشرين، سوريا (١٩٩٥-١٩٩٩)، وجرش الأهلية، الأردن (١٩٩٩-٢٠٠٠) والعلوم التطبيقية، الأردن (٢٠٠٠-٢٠٠٢).

• من ترجماته من الإنجليزية للعربية

- النبوءة والرونيّات: من الأدب الاسكندناڤي». اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٨.
- خفايا ما بعد الحداثة». اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٦.
- هكذا تكلّم الڤايكنغ». كوبنهاغن: دار غدن ٢٠٠٢.
- حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم». الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنو
والآداب، سلسلة إبداعات عالمية (عدد ٣٣٤)، ٢٠٠٢.

• ومن العربية إلى الإنجليزية

- ترجمة رواية فخري قعوار «عُنبر الطُرشان» تحت عنوان Party of the Deaf (عمّان: دار الكرمل، ٢٠٠٥).
- ترجمة جزء من رواية رشيد بوجدرة «ليليات امرأة أرق» تحت عنوان octurnes of an Insomniac Woman، نشرتها مجلة urnal of Arabic and Middle Eastern Literatures لندن ١٩٩٨.

• من مؤلفاته

- قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد» (مجموعة أشعار وقصص قصيرة بالإنجلي
عمان: دار الحامد، ٢٠٠١.

• كتب تحت الطبع

- ترجمة «الأعمال القصصية الكاملة لإيرنست همنغواي» بتكليف من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، لسلسلة إبداعات عالمية.
- «العربية المعذبة: دراسات نقدية». اللاذقية، دار الحوار.